

أخ

رواية قصيرة  
NOVELLA

هيثم بهنام بردى

أَخ: لفظة ينطقها ويطلقها بغضب الأطفال الرضع في العراق، مع تلويحة بقبضاتهم اللدنة، يقصد الضرب أو الصفع، وغالباً ما تكون دفاعاً عن النفس.  
ومعنى لفظة (أَخ) بحسب المعاجم: حكاية صوت المتوجّع أو السّاعل.

[ هنا بدأ التاريخ ]

س. ن. كريم

في أحياء كثيرة تحس أنها مجرد أصوات في الرأس ، سيما عندما يكون المرء ملقى في  
الفسحة الهلامية التي تترجح في مساماتها تلوينات نهايات الصحو ومواطئ الكرى.. أصوات  
ملحاحة صائتة تجعل الذاكرة تتيقن من أن هذه الطرقات التي تعاضد زغردة الفضاء العسجدي  
في فوضاها، هي، لا مناص، طرقات سريعة لجوجة على أكرة باب، أزحت الكتاب عن صدري  
فوقع مرتطمًا بسجاد الأرضية فأَنَّ بصوت كليم كتوم، سحبت عجيزتي من حافة الكرسي إلى  
الوراء فتهاوى كرشى الملتصق بحافة المكتب متضامناً مع حوضي الذي عانق مقعد كرسي  
المكتب، فسقطت على أثر هذه الحركة المتواترة لجسدي المكدود الشمعة الوحيدة المركونة فوق  
سطح المكتب على أوراقى المبعثرة فتراقصت في سقف مكتبتى النهايات الحادة للمكتبة العريضة  
التي تَوَطَّر معظم الحائط الرابض خلفي، والسرير الوحيد الذي يمسك بحميمية طفل وديع طرف  
معطف أبيه، مع هزات بسيطة خجولة للكرسي الهزاز الذي يلامس على استحياء الدرفة اليمنى  
للنافذة المسدلة بطريقة مبالغ بها، تيقظت حواسي واستجلت المحسوسات المرئية والمضمرة في  
لحظة صحو، صحوه فجر ربيعي رائق، رفعت المذيع الصغير الذي يغمز لي بصفاقة مراهق  
منفلت بعينيه الصغيرتين الحمراوين، وبفم مفتوح تندلق منه مسميات عصرية رائجة رخيصة قميئة  
تفصح عن كينونة الدمار والسواد والليل والتقوض والخسوف، وكل مفردات الانطفاء والسديمية،  
ضغطت على زر في هامته فخرس المراهق المأفون، وفي هنيهة الصمت التي أهرقت بها  
صفاقات ونفايات اللغو الفارغ المائت، تسلمت أحاسيسي كنه ما تسقطت أدناي.

- ثمة باب يُطرق..!؟؟.

وبعد أن بلعت ريقى.

- إنه باب قريب.

وتوسلت الفضاء المقهور بهدنة بسيطة، وبعد رمشة هذب من الصمت، تيقنت من الأمر،  
فهمست بصوت مسموع.

- إن باب بيتي يُطرق.

ودون أن استأذن ذاتي تهاومت نظراتي تتهامس مع الوجهين الضاحكين داخل الإطار، انفتحت  
الكوى المصّفدة بعوسج التيه وتسللت خيوط الكركرة البريئة والضحكة القصيرة المكتنزة بالحنان  
فأنارت الغيران الرابضة المتجذرة عميقاً في الحشايا، فانطبعت ابتسامة مرّقت الحزم وأعتقت الروح  
وتسرّبلت بصفاء وعريكة وشكيمة، فانتعلت خفيّ وامتشقت مصباحي اليدوي وسلّمت ذاتي إلى  
الطوار وخطاي تنتسمان خطى سلفي الأول نحو زورق أورشنابي.

وعندما حاذيت الباب وقفت كتمثال من ملح أنتصت.. ثمة أنفاس لاهثة أستشف طعمها  
المتوسل، وأيضاً، ثمة من باب الاحتمالات المحالة، وفي هذه الساعة المجنونة من الليل، وفي

هذا المكان الموبوء بأتون مجاهل غاية الأرز، ثمة.. كركرة رضيع يتمسق مع النواح المؤسي،  
خرج الهتاف من فمي همساً متسائلاً.

- من الطارق؟

وسمعت كلمة أجنبية أجيد التكلم بها.

- آه يا إلهي..!

وبعد فارزة قصيرة من صمت متواتر.

- إنه أنا.

فكرت.

- هل انتصر خمابا؟!.

وفكرت أيضاً.

- بم سيصطبغ ماء النهر..... باللون الأرجواني؟! أم.....؟.

وفكرت أيضاً وأيضاً..

- هل ستستحيل عجائب الدنيا السبع إلى ست؟

وقبل أن أستطرد بالتفكير أيضاً وأيضاً وأيضاً.. سمعت الصوت.

- أرجوك، أفتح الباب.

- ماذا تبغي؟

ونبرة أعمق استخذاءً.

- لا تخف، إني صديق.

واعتقت من حشاياي المزنزنة ضحكة لم تتوقف قط، حتى تشرب بملمسها التهكمي الواخز ما  
اتسعت السماء وما امتدت الأرض ثم عادت إلى فمي بعد أن نقلت الرسالة بكل جلاء، أن بقعة  
الأرض التي حباها الخالق بكل ما هو جميل وساحر، وجبل إنسانها على اجتراح ما هو توطئة  
لكل شأبيب العلم والمعرفة من كتابة وحضارة وعلم وفير، مهددة وللمرة العشرين ربما بأن تصير  
حجراً على حجر، حتى اليوم لن يجد له موطن مخلص لينعب عليها، وأعادني الاستجداء.

- أرجوك صدقني، إني صديق.

وغب شهيق طويل.

- إني بحاجة لمساعدتك.

وانفلتت من فم لدن أفترضه لرضيع شبه عارٍ بعينين سوداوين وشعر مزغب حني، وجبين  
عريض يحتمي بهالة من سنا، وأنفاس دافئة دافئة أزكى من أوراد جنة عدن، مفردة واحدة تكررت  
أكثر من مرة تختصر كل إجابات المنظرين والمفكرين والفلاسفة والفنانين والعلماء.

- أأخ....

هذه المفردة التي تكررت من الفم الملائكي المفعم برائحة الفردوس جعلت الكون بما يعتمل في أحشائه من تفاصيل تتعزى حتى من أعرق معاني العري نفسه لتتبدى على حقيقتها كائناً مشوهاً يحمل عصاً تذر نثاراً من سقود. وتكررت النبيرة الرجولية المتوسلة.

- أرجوك!!

كيف أتصرف، وأنى لي بذاكرة تستغور الموقف الطارئ هذا، لم أتوقع قط من قبل أن أتصور نفسي في هكذا موقف، أحدهم، من الذين أمطرونا ويمطرونا بشواظ ما أمطر به الغزاة مدينة طروادة، يقف ببابي ويستجدي الدخول، ويتماهى مع نبرته هذه الـ (أخ) الزاجرة الصادقة الحادة فيتشكل مع اصطحاب ذاتي المترددة سلم هارموني متشابك لا يتواءم البتة مع صوت مطرب الأوبرا الاحتفالي، كمت الفضاء حزمة صمت أجهزت على الضوضاء النائحة كعواء ذئب جريح يتهاى لأنياب صحبه ورفقة غزوات صيده ثم تهادت تنهيدة عميقة صحبها بكاء طفولي حارق ينبئ عن الجوع المفري، فكرت... إنه حقاً عالم واقعي صرف وليس افتراضاً، ولن يستشف ذاتي من هذا النحيب غير نغمة الشجن والحزن والجوع، فقررت.

- سأفتح الباب.

أمد كفاً وثيقة نحو الأكرة، أولج المفتاح، أديره، يفتح الباب على بوستر يتنفس ويحيا ليس في الواقع حسب، بل في الذائقة أيضاً، إطارٍ ميتافيزيقي يختزن جندياً -منهم- متعباً، تشكل بدنه صورتان متضادتان، ففي كتفه اليسرى تتدلى رشاشة بماسورة رصاصية وثقوب متوازية لم أعين مثيلاً لها من قبل، وفي اليمنى يشرق وجه رضيع بض يصفع الفضاء بتسائل منسوج من الحيرة والغرابة والبراءة والجوع والعري، والمكوّن خلف هذين المتضادين اللذين تفصل بينهما باقة خيوط خضر متدلّية من خوذة حائلة، أشباح خائفة لبيوت متوازية تستحم بالعتمة والرعب والعدمية، وخلفها، في نهاية الزقاق ثمة أطيّار وحوالق لابدة في أفاريز البيوت وفي نهايات الأشجار تصغي إلى العصف والقصف المنسلخين من سماء شديدة السواد.

- شكراً..

صحوت من تألمي، وضع يمناه على العتبة وشاركني الطوار.

- شكراً لسماحك لي بالدخول.

اندفع إلى الباحة مثل البرق، فواجهت ظهراً مرقطاً تطل من عليائه عينان طهورتان لرضيع وجد واحته، فانشأ يبتسم بتواصل..

واستدار يواجهني، خوذة تكبل عينين لا أكتشف منهما سوى الأهداب المسدلة، وأنف أفنى وذقن مدبب غير حليق، وسمعت الصوت.

- أريد مكاناً آمناً للطفل.

غاص وجداني الى نقطة غائرة تحاول أن تجلو لغز هذا الطلسم، "أمنأ" وتبصر ذاتها المجردة، الأمان، والأمان من الأمن، والأمن في اللغة من: أمن. أمِنَ: أَمِنًا وأماناً: اطمأن ولم يخف/ سلم : "أَمِنَ الشَّرَّ"، "أَمِنَ العِثَارَ"/ بلدٌ: اطمأنَّ فيه أهله.

وأين الأمان، يا هذا، مما تراه عيناك، وما تسمع منه أذناك، مما فعلته يداك، وأيدي من تحرك يدك تماماً مثل محركي الدمى، لكي يتحوّل كل شيء ذي هيئة إلى مجرد حدث، ورشني الرضيع بزخة منعشة من بكاء ثاوٍ مفرٍ، يفصح عن برقيات احتجاج عما يجري حوله. وأمام هذا الخيط المتواشج بيني وبين هذا الرضيع الذي يحمل سمات أبناء جلدتي، كان لا مناص من التصرف، فنظرت إلى عينيه الناھلتين وغمازتيه الورديتين، وقرصته بمحبة وأنا أهتف له.

- اتبعني.

\*\*\*\*\*

- لا تنظر إلى الصورة، كمن يتملى تمثالاً هارباً من فسيفساء الزمن المغتر كرش الطاووس.

كيف عنّ لي أن أهمس لنفسي كل هذا التزييق اللغوي الذي لا يتوافق قط مع موقفي، وأنا أتوسط الصالة المعتمة إلّا من استغاثات أذيال ضياء شمعة تنوس في كوة بجدار، وهي تستقيء بالصورة. صورة رجل أنيق بربطة مميّزة تحاكي في توهجها إشراقة الوردية الحمراء في جيب جاكيتة العلوي، وجنبه امرأة في ميعة الصبا بعينين عسليتين تثبت في عمق بؤبؤيهما محبة لا حد لعطائها، وشعر أسود فاحم مسترسل يغطي مثل حزم الشمس هامة طفل في مستهل السنة الثالثة من العمر، به مزيج من مزايا الوجهين الأبويين.

أعادتني جملة نطق بها الجندي.

- عائلتك؟

أومات برآسي.. بلى، إستدار صوبي وهمس.

- جميل.

ثم نير بحزن.

- إطار صورتني يفتقد الطفل.

لم أجبه، بل ركزت عينيّ على عينيه، لمحت فيهما مشروع دمعة. أسبل جفنيه، وانثالت روحه.. (كانوا يقولون عني، بحضوري وغيايبي، إنني طفل كبير، وهم في هذا ما ناكدوا الحقيقة أبداً، فأنا منذ اليفاعه، لم أحب، ولن أحب شيئاً أكثر من حبي للطفولة، فمنذ طفولتي وأنا أتتعم بفراديسها بنهم لا حدود لشراھته، ومروراً بمرحلة المراهقة، والشباب، وبعدها الرجولة المبكرة، لم يغادرني

الطفل، بل بقي في أعماق حشيتي يعيش حياته الحرة الفسيحة يمرح في دخيلتي وداخلي، ويدلق في روحي نزقه وطيبته وشفافيته، فتسريلت نفسي بجوهر ذلك الطفل الذي نبتت له لحية وأزغبت تحت ابطية أيكه من شعر أشقر، وصار هذا الطفل الذي يتمثل ناسوتي يبحث على سجيته وهواه عن رديف يقاسمني أيامي وليالي، يحتطبان معاً سنابل المحبة والعفوية، حتى صرنا، أنا وهي، هي الطفلة بهيئة فتاة تخطت عربتها موطئ الربع الثاني من قرن عمرها، نموذجاً لزوجين يتصرفان كأطفال، ويتوسمان بسمة الطفولة، ويتمهران بكل ما يتمخض من الطفل مما هو بريء وجميل وساحر ما خلا شيء نتحسر عليه، ونحن نعيش هذا السباق المحموم لفك طلاسم المجهول من ابتكارات علمية مذهلة وخاصة في الطب، بيد أن الأصلاب والترائب بقيت خاوية خاملة، تضع علامة استفهام كبيرة في نتائج الفحوصات التي أجريت لنا نحن الصبيين بهيئة شابين، بأننا سليمان لا صدع فينا بايولوجياً، ولكن العلم يقف حائراً أمام معادلة تقول إننا لا شائبة ولا مانع لدينا من الإنجاب، ولكن عدم حدوثه هو ضرب من الحظ، ثم تقول العجائز: إنها مشيئة الرب..)

اهتزاز عنيف رجّ الحي بفعل قنبلة أعاده إلى صوابه، استدار على محوره وواجهني بعينين يتهاطل الدمع منهما غاسلاً درنات روحة المتجلية وصرخ.

- اللعنة على الحرب.

قلت في حدة وفي نبرة صائتة.

- إنها حربكم؟

أردف مع آخر حرف نطقت به.

- بل هي حربهم.

واستطرد.

- السياسة..

وغب فترة.

- لعبتهم.

ثم قال بنبرة حرون.

- من أجل الكرسي..

وأعطى ظهره للحائط.

- كرسي غير منظور، يحكم العالم.. ولا تعرف ملامح من يجلس عليه.

صحا على نظراتي الزجاجية وقال.

- أجل إنها لعبة أولئك الذين يتسابقون من أجل جعل ذلك الكرسي ملاذاً لمؤخراتهم..

وصم شفتيه على جملة ثابتة.



- تلك هي الحرب.

قلت له.

- وأنتم..؟

- من...؟

- أنت وأمثالك؟

- نحن مجرد بياق..؟

واستطرد.

- مقسمون على قلاع وأفيال وأحصنة ووزراء وجنود..

ثم.

- وظيفتنا جميعاً أن نموت من أجل الملك.

وقطع علينا الحديث، الرضيع وهو يلطم الهواء ويصرخ..

- أَّح...  
ويمسك بدمية الدب (ويني) التي أعطيتها له لإسكاته، ثم يلقيها بعيداً عنه وهو يلطم الفضاء.

- أَّح...  
أعمق وأكثر حدّة، ثم أرتكن إلى الصمت، صمت مخائل متمتع بممصمة شفيتين لدنتين لأصابع

بيضاء، همس بجزن.

- الجوع سراب لا نهائي.

فتحت درجاً مسمّراً أعلى الحائط المواجه للموقد وأخرجت علبة حليب وقنينة إرضاع لامعة صقلتها أصابع زوجتي المغرمة حد العي بالنظافة، وألقت الإبريق إلى نار الموقد، وبعد حين كانت حلمة الرضاعة في الفم الوردية.. أنشأنا -معاً- نراقب الرضيع وهو ينهي قنينته ثم تسبل جفناه، وحين انتظمت أنفاسه، لاحت مني التفاتة لأجد الجندي منشداً نحو الطفل وهو يهمس بصوت ذي جرس طفولي.

(حنانيك أيُّها الملاك..)

صدقني أيُّها البريء، إني مذ وطئت قدماي أسوار مدينتك لم أستعمل سلاح، وخصوصاً ضد البراءة، وإني حينما استقلت الطوافة عبر البحار البعيدة كنت أحمل في قلبي النداء الثاوي لقريني الآخر الذي أجبرتني هذه الحرب على مغادرته وكانت آخر تراسل بين أصابعنا، أن أترفق بالطفولة، أنى لسبابتي، يا رديف شهيقني أن تأمر الزناد برشق ضحكة -رضيعة- تنسل من ثغر بسيم، ولكني رغم هذا وجدتك، وكأن المصادفة أو العمد أو الترصد يمارسون لعبتهم السمجة معي، كي أسمع وأنا أتخوذ كل هذا الضجيج للسرفات والطائرات والرصاص والقنابل، المتعاضدة كلها مع القمر الغائب، أو اللائط... اللائذ بالمجهول، صوت بكائك الذي أخرجني في هنيهة بارقة

كل هذا الصخب الممسوس كي تصعد نبرة نحيبك مغطية كل شيء، وكاشفة زيف الادعاءات المغتسلة بالصغار والافتراض الكاذب، وليقوض كل الحجج التي لمعت من قبل ترسانة الدعاية المكرسة بحرفة لتأليب البشر من شتى الأصقاع لكي يقوضوا الشهيق من البدن، ويجعلوا الأجساد أسيرة زفير طويل، وسكون قشعيري أطول، يمتد من الأبدية إلى السرمدية، هذا "المورس" الذي تسلّمته جعلني اشرب بعنقي ووظفت لحاسة بصري ألف بؤبؤ ومليون شبكية تبحث عنك، فوجدتكما معاً، قريني الأنثوي وهو يقبض على معصمي ويخرجني من مكمني، وخطاك المغادرة جسد الأنثى المتكى على الحائط وقد أمسى نافورة من دم، وعيناه مذهولتان فرعتان زجاجيتان تتمحوران حول جسدك الزاحف الساعي نحوي، وحين احتواك رديفي وقريني الناعم ضمك بين جنحيه كحمامة بيضاء مرتخية الجناحين، ثم وغب أن صمتت وأنت تحرق في صدره الريان سلمني إياك ودفعني برفق وهو يهمس.

- أذهب إلى المدينة.

لهجت بخوف.

- ولكنها لما تزل عصية..!

دفعني بلجاجة.

- أذهب ولا تجزع.

- والموت..؟

- أنت برفقة ملاك.

- ولكن أيتها الحبيبة..؟

ولما تزل تدفعني برفق وثبات وهي تبتعد وصوتها ينأى في الجو ويتعاطم في فؤادي.

- جد له ملاذاً..

وأبصرت الهالة تطوقنا نحن الاثنين، وانفتحت -بغته- أمامي دروب تحف بها أكاليل من نور تتكسر وتتشظى وتتحطم على أعتابها الاطلاقات والقنابل، والدروب هذه كلها تؤدي إلى عمق أزقة مصطلية بأثافي الجحيم، وكأن ثمة أماناً سهم من ضياء يدل خطاي، وحين وصلت إلى باب دار هذا الرجل حلقت سجاجات الدروب البارقة واعتمت الرؤى، فقط بصري تسمر على الباب فطرقت الباب والليل والمدينة والكون طرقات استعطاف واستمطار واحتجاج وتوسل..)

وبصيرتي تتلقت بشغف هذا البوح المتهدج الذي انتبه صاحبه إلى كينونة نفسه وكنه المكان الذي يكتنفه وحقيقة الزمن الذي يعيشه، خلع خوذته فانسدل شعره على منكبيه فتبدى في حقيقته التي صفتها الخوذة، فتنفس شهيقاً عميقاً، وألقى جسده الوسنان على المقعد الذي يلاصق المكتب، وأغمض عينيه، تمليته من جديد، أحاول أن أمنطق وضعي، وأرتب أرفف بصيرتي، هل أن ما أعيشه يندرج تحت مسمى فلسفة ال (ما وراء) الواقع، في جلستي الفريدة في صالون فريد، في ليل

فريد، داخل مدينة فريدة، بحرب فريدة، وكل ما تلمسه بصيرتي وبصري فريد، فهذا الجندي المتعب، الذي يبوح بنفس يتعامد بتقاطع مع مسحته وهويته التي تقول أنه عدو، جاء من أشتات الأرض، موزعاً الموت على المدن والسهوب والبراري والنواصي الهاجعة الهادئة، ولكنه ببوحه- الذي تحاول ذائقتي أن تسبغ عليه الشك- أفصح عن طفل كبير يأبى مغادرة حدود الطفولة بكل ما تتسم به من نقاء، ولكن ما دليلي على صدق بوحه، ربّما هو يمثّل، وربما كان ممثلاً قبل أن يجنّد، وربما تدرب على الكذب، ولكن لم يمثّل ويكذب؟، وما الذي يجبره أن يفعل هذا؟، ففي أضعف الإيمان يترك الطفل لمصيره المحتم، أو أن يلقيه إطلاقاً تجنّده في الحال، ولماذا يتحمل وزر مصير مجهول وهو يتجول في الأزقة والشوارع المغممة سماؤها بالموت المتسكع كي يجد قنينة إرضاع لطفل أنقذه من حوصلة مدينة تستحم بالموت.

ندت عنه حركة متواترة ونهض فجأة وعيناه تدوران في محجريهما وبدوتا مثل عينين مصابيتين بالرأرة وحين رأني اختفت رقصته وأسبل جفنيه، ثم قال.

- للنوم سطوة لا تُرد..

وتمطى عاقداً كفيه حول رقبته ثم طرّع عظامه، وبلا تفكير نظر الرضيع فألفاه مستسلماً لكراه، فأخذ يتملى غرفة المكتب، الذي حولته لضرورات الحالة الطارئة إلى بيت شبه مكتمل بين حيطان أربعة، ففيه المطبخ والصالة والمكتب وغرفة النوم، علق باقتضاب.

- الحاجة أم الاختراع.

ثم خطا نحو المكتبة الأنيقة بكتبها المتراسة، صار يتملاها باهتمام، وسمعت نبرته التي هي أقرب إلى التساؤل منها إلى التعليق.

- كل كتبك بالعربية، رغم أنك تتكلم بالإنكليزية أيضاً.

أجبت بهدوء.

- في الجزء الأسفل الأيمن ثمة مكان لما تبغي.

واستل كتاباً، رفعه إلى مستوى عينيه وقرأ بصوت جهير.

History Begins at Summer

فأكملت نبرتي التي أتميّز بها في باحة الجامعة.

S.N.Kramer

ثم قلت مستوضحاً.

- ترجمته إلى العربية (ناجية المراني) بعنوان (هنا بدأ التاريخ) وصدر ضمن منشورات الموسوعة الصغيرة تحت تسلسل (77) عن دار الحرية للطباعة ببغداد عام 1980.

قال.

- والكتاب صادر في لندن عام 1959.

سألته بغتة.

- ما معنى سومر..؟

زم شفتيه وانطبت على عينيه أمائر الحيرة، وهمس.

- لا أعرف.

قلت بلهجة أمره.

- تصفح الكتاب.

وحانت مني التفاتة إلى الساعة المنضدية، كانت تشير إلى الثانية والثلاث بعد منتصف الليل،

وغاصت روحي في غياهب الزمن القصير المنفرش.

( - مصيرنا من مصيرك.. )

وتهاكت على كتفي، استاف أنفي رائحتها الزكية، طوقتها بساعدي فلاذت تحت جنحي كحمامة

بيضاء، وهي تتسلق وجهي بنظرة حب وتدله، بينما كنت مشغولاً بترصد ابننا وهو يقلب الدب

الدمية (ويني) بين يديه وعيناه ترصدان ضحكته البلاستيكية الباردة، ثم يلقيه جانباً وتنشأ أنامله

النزقة بالبحث عن أي شيء آخر.

- لن نتركك.

ضغطت على ظهرها برفق وهمست.

- أهلنا في الشمال، قرية صغيرة آمنة ستكونان بمأمن عن آذاهم.

قالت بتصميم أنثى عنيدة.

- لن نذهب أبداً.

قلت وأنا أضمها أكثر إلى قلبي.

- حقاً..!

- أكيد.

همست بأذنها بنبرة حنونة.

- لنحتكم إلى ابننا.

ندت عنها ضحكة خافتة صادقة، وهمست.

- موافقة.

عمدت إلى الطفل، شلته من تحت إبطيه، ثم وضعته في حضني، نظر إلى عيني بنظرة تضاهي

منابع الغدران في نقاوتها، ثم حول نظره ورشق أمه بغيمة ربابية من نظرات حيية، فهمست.

- بني الحبيب..

وصوبت عيني في عينيه وأتممت.

- عفواً..

- ثم بصوت رسمي متهيب.
- سيدي القاضي، بم تحكم بيننا؟
- كركر بنبرة فرح.
- أمك ترفض السفر إلى أهلنا في الشمال... هل تحكم لصالحها؟
- نظر إلى أمه بعيني كهل فخرفته شواطئ السنين ثم هز رأسه نفيًا.. وأعاد عينيه إلى وجهي.
- وأنا أصر على سفركما إلى هناك.
- واختض بضحك طفولي لا حد لحبوره، ثم ألقى يديه نحو عنقي.. فالتفت إلى زوجتي والضحكة في فمي لها طعم الشهد في شمعته، وقلت بصوت القاضي.
- القرار الصادر من القاضي حاسم لا استئناف فيه.
- وبعد صمت.
- الرحيل إلى الشمال.
- وقطع علينا هذا الموقف الجميل الساحر صوت المذيع وهو يتحدث عن التجييش الحاصل في أرجاء المعمورة ضد بلدي...).
- وصفير حاد طويل أرجعني إلى الصالة، لأجد الجندي يحاول بلا جدوى إنهاءه ووجهه يكتسيه الذهول، وأخيراً ومع آخر دفعة من الصفير الموءود هتف من بين أسنانه.
- هذا مدهش!؟.
- وأنشأ يقرأ بصوت متهدج.
- "إن أول مدرسة في العالم كانت قد أسست في هذه البلاد الطيبة، بلاد ما بين النهرين، وكان ذلك قبل خمسة آلاف سنة، حيث عرف السومريون الكتابة لأول مرة في التاريخ، وكانت المدرسة السومرية ثمرة اكتشاف الكتابة وتطورها، وتلك هي أعظم الإنجازات الحضارية التي أنجزها البشر عبر القرون".
- رفع رأسه ونظر إليّ مذهولاً..
- هل هذا صحيح؟
- قلت له.
- أنت قارئ سيء.
- قوس حاجيه.
- بل أنا قاري مواظب.
- من يجهل ماهية حضارة العراق يجهل القراءة..
- قال في توكيد وتسليم.
- صدقت..

وعيناه تخوضان عباب صفحة جديدة من الكتاب.. انشغلت برّص قطع الشطرنج، كلّ في موقعها وللجانبيين فوق المربع المخصص لها، ثم قدمت بكفي اليمنى البيدق الأبيض خطوة للأمام، لنقوم كفي الأخرى بتقديم بيدق أسود يقطع الطريق أمام الأبيض فيتوازيان مشكلين زاوية حادة بينهما وهما يتكبان التحدي والإصرار في هزيمة الند، مسنودين بكراديس الفيلة والأحصنة والقلاع والوزير المحنك الجسور.

وسمعت صوت الجندي وهو يقرأ بصوت متأثر ومؤثر وعيناه لا تفارقان صفحات الكتاب. "إن شريعة حمورابي تعود إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وهي تحتوي على ما يُقارب ثلاثمائة بند واردة ضمن مقدمة وخاتمة، نقلت بعد اكتشافها إلى متحف اللوفر في باريس وما زالت تنتصب بجلال وشموخ في قاعة بارزة من قاعات ذلك المتحف، وتعتبر هذه الوثيقة من قبل المختصين بالقانون أول شريعة عرفها تاريخ البشر".

وقبل أن ينطق بأية كلمة تنم عن ازدياد الذهول والدهشة لديه وهو يخوض غمار بحر أرض الحضارات بقارب صغير بالكاد يطأ عتبات زهو وألق وديمومة هذا البهاء.. قلت له بلهجة حازمة.

- أكمل قراءة الكتاب.

وتسمرت عيناه على أكوام البنادق المجدلة على المنضدة وقد تمازج الأبيض والأسود في رقدتها، وعيونها مصلوية نحو القلاع التي يحتمي في أهرائها الملكان المرعوبان، ثم نددت عنه نبرة تهكمية.

- عاش الملك..

وانتظر تعليقي ولكن شفتي المطبقة أيقنته أنه لن يتلقى سوى صدى تعليقه القصير، ثم قال بقنوط وحزن.

- مات الشعب.

همستُ لنفسي.

- شعبنا لا يموت.

يبدو أنه تشرب جملتي، فشهرك الكتاب المفتوح بيده وقال بصوت جهوري.

- حقاً، أنتم شعبٌ لن يضمحل..

سُيِّط بنظرة جامدة، فأستطرد.

- ودليلي، ما أقرأه..

ثم قرأ.

"حين ترجمت بعض الألواح التي عثر عليها في نينوى في أواخر القرن المنصرم، اتضح أن أحدها عائد الى مكتبة آشور بانيبال الذي حكم خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وإن هذا

اللوحي يتضمّن حكاية عن الطوفان شبيهة بما ورد في سفر التكوين من كتاب العهد القديم. وقد عرف بعد دراسة هذا اللوح والألواح الأخرى المستخرجة من المكتبة نفسها، قصة الطوفان هذه تشكل جزءاً من قصيدة طويلة كان الكتاب البابليون القدامى يدعونها حلقات جلجامش وهي التي نعرفها اليوم بلحمة جلجامش".  
قطع قراءته وحدق في عينيّ ونبر بإعجاب حقيقي.

- ما هذا الزهو!؟

وتشرب الفضاء بصرخة مباغثة فهرعنا إلى المصدر على عجل وعيوننا تسابق أقدامنا، كان الجسد البض يختض والصدر الغض العاري يرتعش متساوقاً مع الفم المفتوح على سعته والهلع المهيم على البؤبؤين الصغيرين.. هتف.

- ما به..؟

همست.

- مرعوب..!

- مم؟

وقبل أن أرميه بنظره التائب والإدانة، انتصبت الذراع اليمنى للطفل وأشارت صوب وجه الجندي الحجري.  
- أَّح..

حوّل إليّ شفتين ريانيتين ورديتين بابتسامة شفوية مع همهمة تجاري نسمة جذلي، ووضع ذراعه المرفوعة على الصدر فوق القلب الصغير النابض بالمحبة والعفوية والطهارة، ثم ألقم إبهامه شفثيه وانسابت منهما سمفونية تحرث الفضاء بأعمق معاني الحرمان من جبر دافئ وصدر أذفاً، وتجاهلنا تماماً منغمساً في عالمه الخاص.

رجعت إلى مقعدي، وهيأت له قنينة جديدة وآصرتها مع فمه فتقبلها على الفور، وما الوجه الصواني المذهول بنظرة خاطفة وغطس في بيادر تعد بالشبع والدعة.  
سمعت صوت الجندي أشبه بصدى مبتور.

- حفيد جلجامش.

- أجننتنا لها قدرة على تميّز الأسود عن الأبيض.

قال بنبرة لم أستجل مغزاها.

- لمن تنفتح المغاليق؟

أجبتة بنفس النبرة الضبابية الصلدة.

- لمن يمتلك المفاتيح..

همس بشرود.

- نحن أضعنا المفاتيح في أديم الأوقيانوس..  
همست بتوكيد.
- هذا إن كنتم تحملون مفاتيح المغاليق..  
نظر إلى الرضيع ثم تحوّل صوبي، واستتلى.
- أنتما عصيان عليّ.  
وبنبرة حادة خافته.
- تمتلكان النظرة نفسها.
- وحدق نحو لوحة تريض خلفي تمثل وجه "سرجون" ملك الجهات الأربع، ثم قال.
- لكيكما نفس السمة، وبتماثلها مع سمة وجه اللوحة يتعزز يقيني.  
وقطع تساؤله منتظراً الإجابة، وللمرة الأولى أحقق مراده.
- بم..؟
- بصرامة الملامح في الظاهر، وبالطيبة المخمرة في الباطن.  
وبعد أن عطس، همس.
- وتتميزون بتلك الخيلاء والكبرياء.  
ابتسمت موافقاً على استنتاجه.
- وما يحدث الآن خطأ.  
سألته.
- كيف؟
- رمق قطعة الشطرنج بنظرة تفحص ثم قال.
- هراء ما حدث في هذه الرقعة؟  
- وهراء..
- قاطعني بقنوط المكتشف المتأخر الخائب.
- هراء أن يُجندل البيدق دون إرادته، وأن يساق إلى مريعات الموت المجاني، لأجل إدامة حياة السلاطين.
- وأشرت بذراعي مشكلاً قوساً ارتسم على الحائط ذراعاً عملاقة تقتحم ذبالات ضياء الشمعة المتراقصة.
- والذي يحدث الآن..؟
- خدعة كبيرة.
- وتأرجحت الأرض تحت أقدامنا فسقطت الساعة المنضدية وتفتت زجاجها ولكن العقربين بقيا  
راكضين في مداهما يقضضان من الغرفة والبيت والمدينة والكون ثوانٍ مترعة بالندير والتسويق،



وصفع وجنة هذا الزمان المخائل والمكان الموجوع صرخة الطفل المتقطعة الهلعة فنهبت المسافة والتقطه من الأرجوحة أجدل أشباح الخوف في خليج عينيه وانشر أشرعة الطمأنينة في الأمواه المصطخبة الهائجة في لجة موقيه، عبر ضمي لبدنه المرتعش إلى جنحي فسرت الدعة إلى جسده ودفع كتفي بساعديه الطفلين ووهب عيني نظرة مؤثثة بالسكينة والطمأنينة، ثم رمى الوجه الحجري بنظرة غاضبة وصفع الهواء بقبضته وهو يهتف.

- أَّحَّ..

وجاريتيه بنبرة استعارت طفولتي البعيدة.

- أَّحَّ..

ورأيت الجندي يمسح وجهه بكف من يجلد ذاته.

- أَّحَّ..

وألقى جسده المنتفض على الأريكة، وتناوش وجنتيه الصوانيتين بين راحتيه، وتحول إلى تمثال، زالت إشارات الجزع من وجه الملاك اللانذ على كتفي اليسرى، فصارت أنامله لوامس تدغدغ شعيرات وجهي وشاربي في رحلة تعارف بريئة وحين وصلت إلى أذني قبضت عليهما بضغطة حبية لطيفة، فعصرت بدنه اللدن وفي حلقي غصة مريرة على أمه التي ارتحلت مرغمة إلى دار البقاء بفعل إطلاقه قناص منزوع القلب من أية رافة، وفجيعة أب ينتظر الزوجة والابن، وحانت مني التفاتة خاطفة نحو الصورة أتأمل الوجهين الودودين وأستحضر في روعي تلك النظرة المشتركة التي سبرنا كلينا، أنا وأنثاي أغوارها، والحافلة تبتعد عن مدى بصري في رحلتها الميمونة نحو الشمال وقد طوت في مآقي أمائر وجه طفلي الصغير الذي رفعته الأنثى إلى أعلى مستوى للنافذة، وهو يعانقني بالنظرة نفسها التي تعانقني الآن نظرات طفلي الجديد، فهمست له حرارة وأنا أرفع وجهه إلى مستوى لواحظي..

- لا تجزع يا نبع، فأنت دائم التدفق.

وسمعت رنة بها أشارك تعاطف.

- الينابيع لا تجف يا صديقي.

قلت.

- الينابيع في تآصرها وتماهيا تكوّن النهر..

همس متفلسفاً.

- والأنهار، أنى ما حلت، وأي طريق سلكت تبتث الحياة حتى في حبات الرمل المحملة.

همست.

- وأناهارنا نسغ الحياة التي تشربت بها أديم الأرض أنى، وهي لصيقة مثل التوأم بصلصال

أرض ما بين النهرين.

وأوصدت أسماعي وأنا أخلع خفي وأدخل عليقة البراءة وأتعبد تلك الأنفاس العبيقة وأستغور نسغ العينين، وأصطاد طيور السلوى وأستاف ملء روعي طعم المن الزكي الزاكي، فتسللت حنيتي تستأذن عالمه الطهور وأنشأت أدور في فيافي الفردوس البلوري البكر، وفي واحة ظليلة هجعت كل أحزاني وتظهرت وائتزرت بالطراوة والنقاء والصفاء، فتودست ذاتي المستعرة وسادة روحه السمحة.....

\*\*\*\*

\*\*\*

\*\*

\*

أنا هو شمش في الميثولوجيا القديمة..

ولأنني وضاء، شفاف، صادق، مانح، رقاني إنسان هذه الأرض المباركة إلى مصاف الآلهة.. أنا هي الشمس بالمعنى التداولي الشائع المعروف، أنا مرغوبة كفتاة تتمرى، تتغنج، في كل الأصقاع، أهب ذاتي لقوم وأعرض عن قوم آخرين، أنا بمقاسات مختلفة، قد تتشابه عند قومين متعاكسين في أقاصي الكون، أو قد تختلف وهما متحاذدان، ومزاجي يتقبله، مرغماً، كل دبيب على الأرض، أو سابح في المحيط، أو محلّق في الفضاء، فقط، وأكرر هذه فقط ما شاءت ذاتي متوقدة بالحياة، دون كلال أو ملل. فقط عندما أذهب نحو كبد سماء هذه الأرض الطهور، أرض ما بين النهرين، أمنح أهلها المتألقين الطيبين جمّار ذاتي وحشيتي، وذاکرتي مزدحمة بالكثير الكثير من الأحداث والشواهد التي تحكّم عمق الوشيجة المتأصرة بين صلصالها والمتوالد من صلصاتها، ففي كل إطلالة من إحدى شرفاتي على الرواسي والبطون والحشايا والطمى، تتكلم النهارات والليالي، الأصياف والشواتي، الجبل والتل والوادي والسهل، دجلة والفرات، وتدوّن على الرقيمت والصحائف وأوراق البردي والقطن، انجازات ابن هذه الأرض البكر المقدّسة التي جاوزت الأبعاد الزمكانية لينسج لأيام والشهور والسنين والقرون من السنين قصص وإبداع الإنسان المفكر الأول الذي حاك الحضارة بكل ألقها وسحرها على نول الخلق والإبداع والرقى اللاتي كانت سمة هذا الإنسان المختلف، ابن النهرين المباركين.

سأخبركم بإيجاز ما يتراءى لي وأنا أطل من شرفتي، وإن ما تختزنه بصيرتي من صور باهرة لإنسان يحض تربته التي يسعى على بدنها الرخص كل ما هو رائع وقشيب من سيرة عبقة، فها هو حمورابي بلحيته المقرنصة وهو ينهي مسودة قانون الإنسان الأول، وذلك هو كلكامش وهو يروض ذاته المتعطشة نحو ابتلاع عشبة الخلود، ويقنعها بحنكته وسعة بصيرته، إن الخلود ينبغي أن يكون للكل، من مبدأ أن الواحد مع الواحد يتمان الكل، وإن الكل لا يكتمل إلا بترادف الآحاد، وأتملى الطريقة الفريدة التي مشى بها لماسو بقوادمه الخمسة، يتأمله بإعجاب فريد، من

أعتاب أسوار نينوى الزاهية الزاهرة شيخ واهن يعرفه القاصي والداني ويحيونه أني ما رأوه بتوقير : كيف حال شيخنا الجليل أحيقار الحكيم...؟، وهو يتوكأ على عصا عتيقة في رحلة مجهولة المصير نحو أعتاب الصحراء المفضية إلى أرض ملغزة ليلقي على فراعتها المزهوين، أحجياته وحزازيره التي حيّرت عقول جهابذتها وسحرتها ومنجميها وما استطاعوا فك مغاليقها، وما هي الملكة الجميلة بين حماماتها يتسامى فيها الجسد ويتماهى في حالق شاهق في رحلة أبدية مع صويحباتها وأندادها وخلانها، تاركة أوراق المدونين ومتسقطي التاريخ عبر القرون تجتهد في إيجاد تفسير لهذه الرحلة التي ابتدأت من نقطة معلومة، وانتهت في مطاوي الزمن العصي اللغز..

وتتقاطر أمام موقى صورة تتقطر منها سواقي ذاكرة مسكونة بجمرة الإبداع التي تشذب كل الزوائد عما تعانیه الرؤية والرؤيا من بهاء ملوكي باذخ لعيني ذلك الذي أدخل بأخيلته الخارقة المدنية الزاهرة بابل في مخ التاريخ، وجعل ما شيدته عريكته من أعجاز لم تفك طلاسمه حد هذه اللحظة، حين جعل الماء يصعد من الأرض متسلقاً شعاف الجنائن المشيدة بكل سحرها وبهائها وأنفتها دون مكننة كهربية التي لم تعرف لها خصيصة وانوجداد في بطون وطوايا التاريخ المدون المسند إلى الحقائق، وسيبقى هذا اللغز، تحليق ماء النهر إلى قباب جنائن طلسماً لن يُقرأ.

وما هي عيوني البارقة تتسلق الوهاد والسهوب متوقلة التلال، الواطئة منها، والمقتدية بالجبال، نحو شرفة من شرفات نينوى الممهورة ببيوتاتها الرائعة وقصورها التي تتمايل طرباً بأقواسها المقصبة المذهبة، وهي تعانق وجه ذلك الملك المكمل بالنصر والغار، وهو يتأمل رقيمات مكتبته النظيمة التي تمتد تحت سقف عالٍ تتراقص في رحابه أشعة شمس الأصيل الفتية التي تتماهى معانقة الهواء العليل القادم من البوابة المقابلة القصية، وفي الجدارين المتوازيين المتقابلين تتكاتف، ككردوس منظم الآلاف من الرقيمات التي تترجم رقي ورفعة الأرض المجبولة من طمى نهريه المكليين بتاج الطهر والنقاء، وفي الفناء، حيث يرنو الملك المظفر بالسعادة والهناء تتوزع أجواق الفتيات المرنقات كطيور رائقة متشحات بنياح قوس قرح، والشدو الناعم ينسل متناعماً ما بين الشفاه المترقصة والأجساد المتوثبة..

كان ما كان

أمن وسلام في أرض سومر

أرض الشرائع السماوية

\*\*\*\*\*

أبيض وأسود،

وأبيض... أبيض... أبيض

## أبيض:

في استقراء بسيط حاولت فيه أن ألمّ في ذاكرتي إجابات لعباقرة السرد العالمي والعربي في معنى الكتابة وجدواها ومآلها؟، فتواردت أمامي بعض الإجابات التي تتواتر وتتلاقى وتتعاقد وتتقاطع فيما بينها، بعضها اقتربت من ذاكرتي وأخيلتي فأعجبت بها أو ببعض مفاصلها، وأخريات جعلتني أتقاطع معها جزئياً أو كلياً، فيما ذهبت رؤى أخرى بكينونتي أن أتأملها ملياً وبعمق. ولعل من الأقوال التي أحببتها في جدوى الكتابة وماهيتها، ما دونه الروائي العملاق ليو تولستوي في مفكرته أن (الجميع يفكر في تغيير العالم، ولكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه)، ولكثر ما أقف متأملاً هذه الجملة ببساطة تركيبها ومباشرتها، وبما تحبل به من دلالات وإشارات وإيحاءات عن كنه الكتابة، وكيف تتأتى وما ينبغي أن تكون عليه، وكيف يعنّ لإنسان تكبله أصفاد الأنوية الدونية أن يصرخ بعلو صوته ليدعو الآخرين بالتححرر من الذات الجوانية الصافدة المريضة، ما لم يحاول مراراً وتكراراً أن يحطم تلك الأصفاد وليعمل لا بلسانه حسب بل بكل خلية تتوجد في هيكل جسده وعقله أن يجعل من تلك الأصفاد لبنة يبنّي بها وبأخريات معها هيكل تلك الحرية، وعندئذٍ.. عندما تتسامى القيم في الذات المحررة من الأصفاد يمكن أن نغيّر العالم بفعل الكتابة ونسعى إلى إنشاء اليوتوبيا.

## أسود:

ما أراه الآن وأقرأ من كتابات تحاول أن توطر الواقع المزري غير الإنساني الذي يعيشه العراقيون، في صورة بدل أن ينحت فيها عصارة جبهة الفكري في إبراز الواقع الحالي بكل ما يحمله من مدلولات ومرموزات تدين العالم المتحضر عبر ما يصدره من بضاعة يتقن هو ولمصلحته الخاصة في وضعها على رفوف فضائيات وإعلام العالم، نرى المثقف والعالم والإكاديمي والمحلل يجتهد أن يكون هو الصورة لإطار متهرئ يسوّق بها نفسه كسبارتاكوس أو غيفارا، أو مارتن لوثر كينغ، أو نلسون مانديلا، أو غاندي.... الخ، كفاكم يا نحاة الحرف المييت والصورة النافقة والتحليل المقنن المؤدلج،... بلدكم بحاجة الى كلمة نحن وليس أنا؟

## أبيض... أبيض... أبيض:

متى نكتب تاريخ مدننا المستباحة؟ سؤال برق في رأسي؟، ونحن لا زلنا نكتوي بلظى سعار إله الحرب وعدم التماسك وفقدان التوازن.... ماذا يمكننا أن نقول، أنبكي الديار مثل الأمهات الثكلى؟ أنبقى ممسوسي تلك اللحظة المجنونة التي صار فيها الأفق البعيد مؤلاً وملاذاً وهدفاً لخطى إطارات مركباتنا التي تسابق نفسها بحميمية تفتقدها المركبات الفضائية من أجل إنقاذ وجوه تبحث عن الملاذ وسط سراب المجهول والامحاء، والآن لا زلنا نحاول أن ننزع وجودنا من بين طرفي مغناطيس متناقضين، ان نجعلهما متنافرين كي ننعق من مفردات صارت رديف

حياتنا، الفزع، التقتير، الاملاق، التيه،... ونولي وجوهنا نحو الفضاء عل شمس السكينة تشرق ويعود العندليب الى عشه.

أحسب أن الأدب الذي سنكتبه الآن لن يلم بكل المأساة التي أحاقت بنا وصهرت كينوناتنا في مراحل الضياع المتلظية.

نعم.. لدينا شواهد في الأدب العالمي كتبت أثناء الحروب ولنا في الرواية الموسومة (صمت البحر) المنشورة عام 1943 كنموذج، حين جعل فيركور - وهو اسم مستعار لروائي وفنان حفز غرافيكي فرنسي، ولد عام 1902 وتوفي عام 1991 اسمه جان مارسيل بولر -، من شخصيتي روايته القصيرة هذه، الرجل والمرأة... يحاربان الضابط الألماني الذي فرضته القوات الألمانية الغازية كضيف دائم على العائلة، بالصمت، كصمت البحر في الجوار، وكان سلاح الصمت فتاكاً... ولكن هذه الرواية أضاءت جانباً صغيراً من المعاناة، وليس معاناة كل فرنسا، بيد أنها محاولة على أية حال أصابت النجاح وألهمت المشاعر وطُرد المحتل النازي، فهل نحن الآن بحاجة إلى صمت الضياع، الكور، المدن... الصغيرة منها والكبيرة، أم البيوت الحجرية البيضاء، أم الشدو الحزين لبلابل مدننا التي تنادي ولا من مجيب، لنمسح من سيماء حياتنا الضجيج الهادر الذي يصم - يا للأسى - كينونة الانسان الأول الذي عُجن من الغرين الطهور للنهرين الخالدين، وتشكل منه الانسان الأول الذي ابتدأت منه كل أمائر الحضارة البكر، بكل تجلياتها السامية.

نعم..

نحن بحاجة إلى (صمت النهرين الجليلين)، كي نكتب تاريخ مدننا المستباحة المذبوحة.

\*\*\*\*\*

## في أرض ما بين النهرين

### تبلور الحرف وتشكلت الكتابة الأولى

مذ وجد الإنسان وتوطن مع محيطه، وعاش دقائق حياته، بما زخرت من استكناه واستغوار ما تتلمسه يده وتراه عيناه وما تلتقطه أذناه، وما تتسقطه ذاكرته البكر من ظواهر طبيعية بعضها صارت مألوفة لديه، وجلّها عصي على مداركه، أحس أن ثمة شيء أهم من الهمهمة والتخاطر وارتجاع رد فعل غير ممنهج لفعل غامض، وأجلّ من غريزته في الحفاظ على إطار وجوده، من

خلال فعل حياتي أنني قمين يجعل وجوده مرتين بالمصادفة أو أي صورة آنية أخرى، والكثير الكثير مما كانت أحيته تستبطنه كإزميل النحات، أحس أنه بحاجة، ليس إلى الحفاظ على اكتشافاته المذهلة للكون، وما يمثله من رمز حيوي، رغم ما يحق به من إشارات تهدد وجوده كمخلوق مهم جداً، وديمومة الحياة في تناسب طردي مع هذا الوجود، وتعلق هذا الإحساس بفعل زوال الكثير من البديهيات التي ترسخت عند الإنسان المكتشف الأول. ويفعل تواتر المعارف المتلاحقة الكثيرة، والتي هي بأمر الحاجة إلى تناقلها عبر الأجيال، ليس بذاكرة جمعية قابلة للنسيان، بل بذاكرة أخرى تتسرد مع تصرم الحقب والسنين، فكان أن أفصح بذلك، وكانت الكتابة بأبسط صورها على جدران الغيران والكهوف الاكتشاف الأهم، والأهم، والأهم... الذي وطّد الوشيجة المتلاحمة بين الإنسان ووجوده عبر ذاكرة مادية محسوسة مدونة، وكانت تلك النقطة الفاصلة في مسيرة الوجود الإنساني في انتقاله من العماء إلى المعرفة بفعل اجتراحه الكتابة الأولى. فكان لإنسان ما بين النهرين الفخار بأن الكتابة الأولى ظهرت من ذاكرته الفذة، وفيه ومنه انطلقت إلى المعمورة، وهذه، لعمري، إشارة وضيئة توشح لنا - نحن أحفاد العراقيين القدامى - كأمناء للفكر والعلم والمعرفة الإنسانية. وجولة بسيطة في أروقة وقاعات المتاحف الوطنية والعالمية، من خلال الرقيمات الصلصالية المكتشفة الموثقة في جدران وفضاءات تينك المتاحف، والأطنان من مثيلاتها المطمورة في غرين المسطحات المائية في الجنوب، أو في الوسائد الناعمة في أهراء السهوب والسهول وتلول الوسط والجزيرة السهلية، أو في حنايا جلاميد الجبال في الشمال، تُظهر للعالم مدى تطور "العراق، أرض ما بين النهرين، الميزوبوتاميا" منذ العصور القديمة جداً وحتى الزمن الحاضر في مختلف المشارب والمسارب والمنابع والمساقط المعرفية والعلمية والفنية والثقافية. وتأسيساً على هذا ظهرت الكتابات التي تورخ لأول مدرسة، وأول معادلة حسابية معقدة تسبق المكتشفات العلمية بعدة قرون والمسجلة بأسماء آخرين، والقصيدة الأولى، والحكاية الأولى، والأسطورة الأولى، والمكتبة الأولى... ولنا في ملحمة كلكامش - كمثال لا حصر - خير دليل على تسيد إنسان العراق القديم الفن السردى الحكائي الأسطوري.

وبكرّ وتصرم الحقب الزمنية بكل إرهاباتها التي حاكت للعراق ثياباً تتوائم مع معطيان الزمكان بكل تجلياته ومخاضاته وخلصاته، كان المدون، شاعراً كان أم سادراً، أميناً في تدوين ما مارت

به تلك الحيوانات، فكانت الكتابة الملكة المتوجة في أعطاف الزمن التي تجبب بها والوجه الآخر البهي الناصع لصورة الواقع، وبناء على هذا التشكل كثر المدونون والسادرون والمنظرون الذين تماهوا مع الجلاميد والطين المفخور وجلود الغزلان والقراطيس المجبولة بروح القصب والبردي، بما كانت تعتلج في دواخلهم وكينوناتهم من أفكار ورؤى علمية وفلسفية وميثولوجية وحكاية والمناهل الأخرى للحياة في تصرم قرونها وعقودها، أصيافها وشواتيها، أيامها وليلاتها، ساعاتها وثوانيتها، فبرق في فضاء الإنسان في كل أرجاء المعمورة، في ماضيها السحيق والوسيط والحديث، العالم العراقي، والحكيم العراقي، والفيلسوف العراقي، ولنا في الأخير شأن به ما دمنا - نحن الساردون العراقيون أحفاد نجباء له- ونحاول أن نواصل مسيرته الظاهرة الضاجة بالعديد من التساؤلات والبراهين والتقصي والإستغوار، منذ نابو الكاتب الأول، وأنخيدوانا الشاعر الأول، وأحيقار الحكيم الأول، وحمورابي المشرع الأول، والمجهول المدهش الفذ الذي خط بروحه المقدمة بالعبرية (شانقبا إمورو) (الذي رأى الأعماق- ملحمة كلكامش)،..... مع سواهم من سكنة العراق وحاولوا تدوين الواقع بكل حيثياته ودقائقه، على المستويين: العام والشخصي...، في مدوناتهم، فكانت ترى الأضداد تتوائم، والمتشابهات تتضاد، في بحث مضنٍ عن ماهية تواجهه وتقايله وجدواه، فكانت المعادلات الفلسفية والمنطقية تغطي على جل كتاباتهم، وهذا البحث العصي لم ولن يتوقف في كتابة السارد عبر رحلة الزمن وصولاً إلى الزمن الحاضر وتواصلنا نحو المستقبل.

وقطعاً، أن المبدع العراقي في رحلة بلده مع الزمن لم تتوقف مع التوطئة البهية الأولى من الأسماء ولم تستسلم ثريا الإبداع إلى ديجور الخبو والانعدام، بل توامضت مع دوران عجلة الزمن محطات بارقة في حشايا الوجود، فكانت المستصيرية وبيت الحكمة والمكتبات الضخمة التي كانت تعج بالوراقين والنساخ التي أتعب الإبداع العراقي دواتهم وأنضبت قراطيسهم وهم يدونون بأصابع كلت، وهمّة لا تكل ما جادت به قرائح العراقيين من أشعار كالمتنبي وأبي تمام وأبي نؤاس ... الخ، وسرديات الجاحظ، وأبي حيان التوحيدي... الخ. وهم وغيرهم مما غابوا في ذاكرتي وحاضرة في كفوف التاريخ الحانية، حبات تتصدر قلادة الإبداع العربي. وعربة الإبداع لم تتوقف حتى وهي تشرأب عنقها نحو توطئة القرن العشرين حيث الزهاوي والرصافي والجواهري، والسياب، ونازك الملائكة، ومحمود أحمد السيد، وفؤاد التكرلي، وغانم الدباغ، ومهدي عيسى

الصقر، وعبدالملك نوري، وغائب طعمة فرمان،... وغيرهم الكثير الكثير من الرموز التي بعضها لا يزال في محطات الإبداع في انتظار العربات الأخرى ليتخذ لنفسه إسماً في قطار الإنوجاد والتوشج.

\*\*\*\*\*

### كنه النظرة

وأنا صبي، لم تكد أيامي المتعاضدة مع الحياة تربو على ألفين وخمسمائة من تناوب النهارات والليالي، حاولت أن أستكنه معنى دقيقاً، وأطلق مفردة تضاهي وتقارب الفعل الانساني النادر الذي اجترحته الحمامة، في حكاية مقررة في كتاب القراءة العربية، وهي تمد بمنقارها عوداً يابساً في مسار الماء على شاطئ النهر، سقطت في خضمه نملة دؤوبة تبحث عن غلتها، وكم أبدت من جهد ذهني وحركي مضمّن في اوصول العود إلى النملة المحتضرة إلى أن أفلحت أخيراً في انقاذ النملة المحظوظة التي نجحت في الامساك بطرف العود وسحبها الحمامة في المطاف إلى بر الأمان.

وأنا ألمم سنوات الصبا وأضعها في صندوق الذكريات، تعودت خطاي الواثقة الذهاب عميقاً في المدى المترامي للقاعة حيث مكتبة المتوسطة، وأجلس في المقاعد المخصصة للقراءة، مستقبلاً نثيث المعرفة مما تمطره على هامة ذائقتي الكتب المتراصة في الأرفف الخشبية والتي تلبّي كافة الأذواق ولمختلف الاعمار، وكان من ضمن ما أورق في داخلي من نثيث المطر حكاية (روميلوس وريموس) الأخوين اللذين أسسا عام سبعمائة وثلاثة وخمسين قبل الميلاد، مدينة روما عاصمة امبراطورية زاهرة تسمت باسمها، وكيف وضعتهما أمهما في جوف سرير مسقف معمول من الخشب والقير، ووضعته في عهدة النهر، ومن ثم تلقفتها الذئبة على الجرف بعد أن جرفته الموجات بعيداً في الطرف الآخر من الشاطئ، ولنا أن نتصور أيضاً، مدى عمق النظرة التي بانّت في عمق بؤبؤي الطفلين بعد عامين وهما ينهلان من ضروع الذئبة ذلك الحليب الطافح الطازج الذي منحهما الحياة، وتلك النظرة التي تضاهي وتماهي نظرة الحمامة التي كانت تمور في عينيّ الذئبة والتي تقطر عسلاً يفيض بمشاعر حنان لا حدود لها.

وغب ذلك قرأت قصصاً أخرى تجاور تينك القصتين، ولا تهمني مسألة التأثير والتأثر، القديم والجديد، قدر ما يهمني ذلك التماهي بين نظرة "سرجون الأكدي" ملك الجهات الأربع والذئبة التي انتشلته من النهر وأرضعته بحنان وأمومة حقه، لا تداني، بل توازي، ذئبة الاخوين الرومانيين،



وتقف على الخط نظرة "حي بن يقظان"، في حكاية لا تختلف عن سابقتها، والفيصل الرئيس لجميعها هي (الذئبة/ الأم)، الحنون، العطوف، المعطاءة، ذات حس يميز الحس الانساني الذي يعده العلماء والفلاسفة قمة المشاعر الانسانية النبيلة، ولا يفوتني نبي الله "موسى" وهو يسيطر لنفسه حكاية ولادة وأميرة فرعونية رائعة ترمقه بنظرة تفيض بحنان الأم المفتقدة.

الذي لا يمكن لكل الأقلام أن تسطره، ولكل الريشات أن تخطه، ولكل آلة موسيقية أن تبثه، لا يمكن البتة أن تحتوى كنه اللحظة في أعين الحمامة والذئبة والأميرة من جهة، وتجذرها وتساميتها مع كنه أعين الأخوين روميلوس وريموس، وسرجون، ملك الجهات الأربع، وحي بن يقظان، ونبي الرب موسى، من جهة أخرى....

\*\*\*\*\*

### شذرات

ثمة شيء، لم ولن أفك شفراته، يزور أحشاء باصرتي، كموجة متناهية في الصغر تتوالد من لبطة سمكة بحجم الدودة، تتداخل ألوانها في تمازج، لا أستطيع، رغم تمكني من فك ألغاز التشابك اللوني لموجات قوس قزح حين يتشكل في السماء غب مطر باذخ وشمس فتية باسمه، أن أستغور حقيقة هذا التماهي بين ألوان الكون... ثم تتطامن هذه الموجة آتية من أقاصي تلافيف ذلك النسيج اللابد في عمق القحف، وتقترب بخطى واثقة مكتسحة في غزوتها الظافرة روح اللون الذي يصادفها في القاع حيث الأشنات والأسفنج والصخور الأدكنة، و ذلك التواشج ما بين القعر حيث بُني الكائنات الحية المتعددة، والسطح حيث التعالق الساحر بين اليم وما يحيط اليم، فتتوارد في روح باصرتي جحافل من أخيلات ورؤى تبحث، ليس على الصدفة، بل على المحارة... محارة روح الوجود.

و... عندما استيقظ في الشفق وأتأمل ذلك التراتب التنظيم لأسس الديمومة، حين تسلّم العتمة صولجان الحياة نحو الضياء الطافر من الشرق، أسعى مثل نحلة مواظبة في الحقول الممرعة والبساتين الغناء باحثاً عن الجوهر، فاستقصي في ذاكرتي كل أعمال المنجزة، والمشكلة على شكل مجسمات حجرية صلدة، باحثاً عن شخص يشبه أنا، بل هو أنا أن أفلحت، يبحث عن ثيمة مطلقة تتم بنيان عمله الفني المعجزة، وعندما يتحقق ذلك، أتجاوز المكتملة كمحطة صارت في عهدة الماضي، وأترك التي لا زلت أبحث عن الماهية ولكنها تتمتع، فأبحث باللجاجة التي عهدتها في روحي، وعرفني الخاص والعام بها، والذي ينظر الى صخرة ويغوص في ثناياها باحثاً وعاجناً وحافراً في كنهها ليستنبط الشكل الذي يبغي وينشد، والذي من أجل تحقيق هذا الامر، مستعد أن أشطب بجرة قلم عن كل ما نحتت في الزمن الغابر من الجميل والرائع من المنحوتات من أجل أن أتمثل الجمال المطلق في منحوتة تبقى على مر العصور رمزاً للجمال

الباهر، والذي يتبدى الآن أمامي كحشرة طائرة تضيء الليل الداجي ببارق جناحيها الناريين، وتمزق ستار هيكل التعمية الذي كان يفصل عني الضفة الأخرى، التي تمثلت أمامي وصارت تفاصيلها تتزى وهي تعلن عن سر طويتي الباحثة عن الجمال الأنموذج، الجمال المثال، الجمال الجمال... ووطئت بصيرتي أعتاب فردوس الضفة الأخرى، ووجدتها تترجم تماماً ما ابتغيه كإطار أنيق ساحر لإنجازي النحتي الجديد، وتعاقت أمام مخيلتي الصور والتفاصيل التي تشكل في تراتبها الأبجدي وفي تأصرها التشكيلي جسيمات صغيرة، بل متناهية في الصغر، لذلك الكائن الانثوي الباهر، الساحر، البديع، والذي سيتعاشق في المطاف النهائي في أبهى صور وأروع تشكيل....

### من سطور دونها الفنان السومري الذي نحت إنانا

\*\*\*\*\*

### زهو النحات الرافديني

وأنفاسي الدافئة الغضة وهي تسابق النهارات نحو شفق وغسق متناوبين، وقامتي الناحلة بينطالها وقميصها وشعرها المسدل وسالفها المزهيين، تتعطف ظهيرة كل يوم أثناء خروجي من فم الزقاق الفرعي، نحو مدخل الشارع الرئيسي، تتخاطف سحيتي وحشيتي نحو ذلك المحل الصامت الأنيق بواجهتين متقابلتين من زجاج شفيف نظيف، أقف متوجلاً في حضرة الجمال والأخيلة المهووسة المجلولة والمختصة باقتناص اللحظات الفريدة الهاربة إلى بويصلة الزوال، فارمق أحشاء المحل أتأمل مأخوذاً ذلك الكهل الأنيق بعينين نافذتين بارقتين وأناقته التي تتأزر مع صاية مقلمة، مختارة بحس لا يمتلكه إلا فنان محترف متمرس، ثم تعود نظراتي بعد أن يمنحني حاوي اللحظات التي لا تمنح ذاتها وسرها قبل زوالها، تماماً مثل فقاعات الصابون، إلا لباصرة صديقها الأثيري، ونديمها المخلص، ابتسامة مشرقة ودودة، فتبدأ فصولي التي تتجاوز الفصول الأربعة إلى فصول لا عد لها.. فأنى لذاكرتي الغضة التي وطئت لتوها مباحج وفيافي وممالك الإبداع في محاولات خجولة في تدوين سفر الأرض التي وهبها الخالق كل سبل الرقي الذاتي والارتقاء بالإنسان في أي مكان كان إلى مصاف التمدن والحضارة والأصالة، أن تستشف وتستنور هذه اللحظات المترعة بإشارات مهما تدربت الكينونة والذاكرة على محاولة بلوغ شطآن الإبداع لن تغادر نشوة هذا البهاء الإنساني الزاخر بمعنى الحياة والوجود.

وأنى لذاكرتي الفتية أن تجلي تلك المعادلة الرائعة ما بين الإنسان والطبيعة والزمن، فهذا التعالق الخرافي بين سمات الوجوه وبين ما تمارسه من غزل خيوط الأمكنة في نوال الزمن المغادر والحاضر والقابل لا يمكن أن تتسجبه سوى أنامل ورؤيا ومهجة إنسان يماهي عشتار وهي تهادن الدقائق القاتلة الممهورة بالانتظار الممض، ريثما توافق أختها آلهة العالم السفلي أرشكيجال كي تهبط الى عالم الأموات، لكي يعود حبيبها تموز إلى الحياة، أو يرصد الدقائق العصبية من رحلة الملك الأثيل كلكامش وهو يعبر نهر الموت بحذر شديد مخافة ان تلمسه قطرة من المياه الطافرة من مجدافي مردي أورشنابي ويتحول حلمه بالاستحواذ على عشبة الخلود من الخالد أوتونبشتم إلى مجرد حلم قصفته أمواج العدم والموات، وكانت أنامله وهي تخدش وجه الصخر الجلمود بصبر لا تحده حدود وبحرطنة لا يمكن أن يصدقها العقل تجسد في الصخور السماء ملامح الملك الخائب الحزين ملك أوروك الذي حد من شهوته للإستحواذ على كل ما هو حياتي ناطق بالجمال إلى أشلاء عواطف متفصصة بفعل شهوته اللا نهائية في تمجيد أنانيته، وهو ينظر بعينين تدمعان ماءً كاويًا على خله وصديقه أنكيدو الذي أعاده إلى صوابه وأنقذه من أناه الدونية وجعله ملكاً للشعب بعد أن كان ملكاً لنفسه الجائحة اللجوجة.

وتلتقي نظراتي في لمحة خاطفة مع نظراته الودودة، فتفتقر شفتاه عن ابتسامة متألقة، ثم يعيد ذاته إلى سائب صورة أو حياة جديدة على رقيم طيني أو صلصال مفخور.. وتتهاوم نظراتي في حيرة تضاهي ارتباك سنونو أضاعه سربه، وتعانق ابتسامته المشرقة وهي ترمقني بمودة، واستشف نداءه..

- سافر إلى أوروك وبابل وكالح ونيوى ونيبور وإلى مدنٍ وضياح لا يمكن أن تلم بها وبتواريخها المضيئة كل رقيمات الكون... واستشف المعنى.

وأستقل زورقي وأبحر إلى الزهو الذي يحيط بالرافدين المباركين،.. ثم أتسلق الشاطئ نحو الطرق المطيرة وسنابك خيول العربات تعزف على خيوط المطر سمفونية العطاء العراقي التليد الذي لا يتوقف.

وأخيراً أجد نفسي ازاء النحات من جديد، أقف أمامه أتملى تفاصيل وجهه وأحاول جاهداً الولوغ إلى ذائقته الإبداعية الثرة، بتمامٍ لا مثيل له من عينيه المشرقتين المشرعتين كبوابتين مؤتلفتين ساحرتين، وهما تدعوانني إلى وليمة فيها كل ما هو مشرق من سفر أرض ما بين النهرين.

\*\*\*\*\*

من أجل امرأة  
جنائن بابل المعلقة

## إحدى عجائب الدنيا السبع

إن العنوان أعلاه ليس شطحة خيال، بل حقيقة راسخة تحققت في القرون الغابرة وقبل الميلاد بحوالي ستمائة سنة، في أرض ما بين النهرين، وتحديداً في بابل عاصمة عواصم الدنيا إبان الحكم الزاهر للملك (نبوخذنصر) ، وهذه الملكة هي (أميهيا)، زوجته الميذية التي استقدمها من الجبال، ولكونها ابنة الجبل، وبابل مدينة سهلية تغازل النهر المبارك، ولأنه يحب زوجته حباً جماً، وهي لا تستطيع من الأماكن العالية فكاكاً، ولأنه من المحال أن يزيح الجبل نحو السهل، تفتقت مخيلته على فكرة ابتكار تضاريس شبيهة بموطن زوجته، فكانت جنائن بابل المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع.

وبابل مدينة مهيبية ذات أسوار يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثمائة وخمسين قدماً، وبثخانة سبعة وثمانين قدماً، يخترمها مائة باب ذهبي، وأعجب ما فيها جنائنها المعلقة، التي تعتبر فتنة لا تباريها فتنة، يسورها خندق مائي متفرع من النهر، مشيدة على عقود من الحجر النفيس، وبثمانية أبواب أجملها باب عشتار، تتوزع على صدورها ومتونها، وفي تتابع هندسي بديع، تماثل بأحجام متباينة، والجنائن عبارة عن أربعة أفدنة بشكل شرفات معلقة مرتكزة على أعمدة يبلغ علوها خمسة وسبعين قدماً، أعلاها قصر كبير تخترم جنباته الفسيحة النباتات والأشجار والأزهار ذات الألوان الساحرة، وعند إزهارها خلال الفصول الأربعة برمتها كانت تعطي للقصر هيئة جبل مزهو بأوراده، أما الذي اجتهد فيه الخيال ووجد له أكثر من تفسير لا يفصح عن الحقيقة هو إجابة لتساؤل: كيف كانت مياه السقي ترتقي نحو الأعلى بلوغاً نحو القمة..؟

وهيكل البناء بشكل عام يُعد من نفائس فن العمارة، حيث يتوالد عبر تآصر الطبقات بعضها ببعض درج واسع يتزين خلال فصول العام بأكملها بثوب قشيب قوامه: عناق أوراد الأشجار المثمرة، مع الورود المنتشرة في الألواح والممرات، والتي تتضوع بشذا يفغم الأفواه والنفوس، ليرسل، من ثمة، أجمل رسالة، ضوع الزهر، النسيم العليل، الجمال الأخاذ، والذكاء العراقي المذهل.

\*\*\*\*

\*\*\*

\*\*

\*

..... وليس ثمة من منطق المقارنة بين الكف البضة بالأصابع اللينة الشفافة الناصعة التي تلامس أذني وتجعلني أغوص أكثر وأكثر في جنائن العالم الطفلي المزغب بالمحبة، وبين تلك

الكف المحززة بالحبال الزرق والشعيرات الشقر وهي تحط كعصفور مجفل على كتفي وصوته  
يخترق بعبابه سكينه العالم اليوتوبي الذي يحتويني.

- هل أنت أديب؟

رششت عليه نظرة عتب واستفهام، وحين أراني دفتر مذكراتي بكفه الطليقة، أجبته..  
- لا.

ارتداه الوجوم والحيرة، وغب صمت قال بتوكيد.

- هذا النسيج الرائع من الجمل، هي كتابة أديب متمرس.

لم أجبه، بل رقيت جدار الصمت بيني وبينه، وعاودت رحلتي نحو الأصابع الحنونة اللدنة..

- هل لك كتب مطبوعة..؟

أدرت جذعي صوبه وقلت بحسم.

- لا..

- ولكن هذه كتابة أديب.

- إنني آثاري.. وما قرأته هو جزء من تلاحق وتواصل بيني وبين مآثر الأجداد.

- إنك تقدم أجدادك بشكل أدبي راقٍ.

قلتُ في ابتهاج.

- إنهم الطواطم التي تتكسر أمام قوادم انجازاتهم كل الكتابات المنمقة.

وبسط دفتر مذكراتي أمام عيني.

- أنتم بحاجة إلى هذه.

نظرت إليه لتساؤل، فيم استطرد.

- أن تروّجوا لتاريخكم..

وغب صمت.

- التاريخ المسكوت عنه بقصدية، والمّغيب عن الذاكرات عبر البحار البعيدة..

- شرح الآثاريون الكثير عن هذه الحضارة الرائدة..

- قد يكون هذا صحيحاً.. ولكنكم بحاجة إلى شيء مهم، إمّا تغافلتُم عنه، أو تجهلونهُ..

هزرت رأسي مستقهماً، فأكمل.

- الترويج..

لفظت الكلمة في فمي باللذة الساحرة للعلكة الجديدة أول مضغها واستمعت إليه..

- تقاعس فضيع في تقديم هذا البهاء إلى العالم..

- قد تكون مصيباً..

- لستُ مصيباً حسب، بل أستطيع أن أقول إنكم ملامون ويجب أن تحاسبوا أنفسكم على هذا التقصير..

وترادف إلى ذهني سؤال جهرت به بأعلى صوت.

- كل هذا الألق، كان مطموراً في طوايا الطين والتاريخ، ومن كان مساهماً فاعلاً في أجلائه وسلبه، هم أجدادك ووضعوه في متون قاعات أنيقة مشيدة، يؤمها الملايين من الزوار، ويسهب مختصون من لديكم في شرح السجايا الوضيئة لهذا الحضور الحضاري الباذخ، ثم تجيئون إلى المنبع لكي تدمروه.. أليست هذه طرفة سوداء..؟!..  
أطرق خجلاً ثم قال.

- إنك على حق..

قلت بقهر حقيقي.

- إنكم، جلّكم، خيول مغماة، تقادون إلى ردم الغدران، لكي يعم التصحر في حنية النفس البشرية..

قال بنبرة حزينة ممزوجة بالذنب.

- عودة إلى نقطة الصفر.

- أو نقطة العماء.

فانشأ يردد مفردة (العماء) مع نفسه أكثر من مرّة، ثم أخذ إلى الصمت، وعقب فترة قصيرة كانت عيناه تنظران إلى عنوان كتاب ما في المكتبة، وحشية بصيرته التي توهجت بهذا الفيض النفيس من العالم القشيب المكتشف. ارتحلت ذاته المتوقدة المستوفزة إلى هيولي آخر، فعانقت عجيزته المقعد الجلدي لكرسي المكتب وركن رأسه المصطخب في سكينة الحشية اللينة.

تأملته بإمعان.. كان في سحنته تعب مضمّن، وفي ذقنه المتحدّر المتهاك سمة طفل متلبس بجرم صغير، وفي هبوط وارتفاع تفاحة آدمه مؤشر اصطخاب أمواه روحه المهتاجة، وفي ذلك الانقياد التام لسماته نحو السكينة التي يحاول اقتناصها من هذا الزمن المتدحرج محاولة ربان غريق يجتهد بكل جوارحه لاستبصار سفينة نجاة أو فانار.

وبغته، تساقطاً مع الاهتزاز المريع للبيت وتساقط أكوام الكتب المكدسة من سقف المكتبة وارتطامها بزجاج الطاولة وتهشمه إلى قطع توشحت بها أثاث الصالة، وصراخ الطفل المفجوع، قفز من مكانه فزعاً وركض نحو الباب يتسقط الومض البارق في السماء على شكل ثريات تتوالد من طائرة مارقة وتهبط على مهل في الفضاء العالي لكي تتوزّع على الأبنية وخزانات الماء وشبكات توليد وتوزيع الكهرباء، وعلى الحصن الكاكية، وعلى المدينة بأسرها، فهمس لنفسه  
مفجوعاً.

- اللعنة..

همست بصوت ثاقب.

- هذا ما تجودون به.

نظراً إليّ بعينين زجاجيتين.

- الموت...؟!..

وتصادى في فضاء المكتبة صوت.

- أّخ..

صافعة، صادمة، زاجرة، ملتاعة، موجعة، ساخطة، محتجة،... فالتفتنا معاً، لنجد ساعد الطفل، والكف البضة وهي تتحرك صعوداً وهبوطاً، وقنينة الإرضاع تتموسق على صدى حركة صدره، وقطرات الحليب الجني الدافق يتقطر من الحلمة لترسم مسرباً متعرجاً في الجسد المحتج الملائكي.

هرع إليه، وجثاً أمامه، أمسك بكفه الأخرى وتضرّع.

- اهدأ يا صغيري..

فرددت مع ذاتي.

- ... يا صغيري

وتوسل به، كمن يتلو ترنيمة.

- آسف يا ملاكي..

صرخ الرضيع بقوة ثقبت بلادة الذاكرات المنساقاة إلى الافتراء.

- أّخ...

حاول أن يضم الكف اللاطمة.. بيد أنها تملصت بحذق وانهالت على وجهه..

- أّخ.. أّخ.. أّخ..

نهض على عجل، وبخطى مجنونة تخاطفت أطرافه نحو الباب، تلقفه الطوار المقرر، صفعته أسياخ ضياء الشمعة على ظهره المتوتر المرتجف، رفع يميناه وواجه طلائع الظلمة المخاتلة، وهتف بمواء قطة ثكلى.

- كفى...

ودار على عقبيه دورة كاملة، وتواترت ذراعاها، وتلاقتا أمام موقيه ثم رفع كفيه المضمومتين نحو السماء، وابتهل.

- يا رب.

واقعدت البلاط قابضاً وجهه بكفيه، ولّفه صمت تعاضد الفجر الوشيك معه، خطوت صوبه، تقرّفت إزاءه، وجدته ولأول مرّة، إنه إنسان لا يمت بأية صلة لثيابه المرقطة المحزّرة والمسوّرة بالعديد من الحلقات والمفاتيح والأكواب والقناني المسخرة لإدامة آلة القتل، إنسان متجرّد من أي

سمة تشير إلى حاله الراهن، إنسان شفيف واجه السديمية والجهمة بشفق ينهض من أعماقه،  
يشهر بوجه تينك الجحافل كفاً تترادف بغضبة أكبر أًح..

مددت كفيّ وأمسكت كتفيه وأنهضته، استند على كتفي وانقاد، إنقياد الظل إلى الجسد، نحو  
خطواتي الواجبة إلى المكتبة، أجلسته على الأريكة، وعمدت إلى قدح من الماء، شربه دفعه  
واحدة، ثم انقاد كالممسوس نحو ابتسامة الرضيع التي حممته بماء منعش يستشف منه أركى  
طعم، طعم الألفة والصدقة والفرحة المؤثثة بالمحبة الباذخة، انحنى بكليته نحو الرضيع الذي مدّ  
أنامله وصارت تكتشف تضاريس وجهه، فأضيء جبينه بقبس من نار ونور، وأغمض عينيه  
منتشياً، ونهايات الأصابع التعب اللدنة تقنع من ذاته العاقول والشوك والته والوهم والخواء..  
ورأيت - فجرئذٍ - منظرًا لو رسمه فنان قضى عمره بين الألوان والطبيعة، واقتسم أيامه وسنينه في  
استكناه أعرق الوشائج الغنية بأنسينتها، لن يحظى البته بمثل هذا الإكليل الوضاء من تشابك  
إنساني مذهل..

وطرقت بعنف دقات الساعة الجدارية المعلقة إزاء الباب، فعدنا، من الفردوس، واستقصت ذواتنا  
في هنيهة خاطفة بين دقة ولاحقتها واقعنا المرير، فأزبد وجه الرضيع، وعض حلمة القنينة حتى  
أدماها، وانتفض هو رافعاً روحه بجسده الرخص العضل، وارتدته لهنيهة أمائر الحزن والكلال،  
راوزني بنظرة لم أستكنه هويتها، ورشق الرضيع بنظرة ترسف بالمحبة والأسى، عدل من ثيابه،  
مشى صوبي، وقف ينظر إليّ بعمق ثم هتف.

- يجب أن أذهب.

لم يصدر مني أي تعليق.

- شكراً لك يا صديقي..

ثم رمى مكتبتي بنظرة ود.

- وشكراً لهذا القبس الذي أنار طريقي..

واستدار ناظراً لخريطة العراق، وقال.

- وشكراً للأرض المباركة..

ومن خلف كتفي، ابتسم بوجه الرضيع وهمس..

- شكراً يا أصدق إنسان..

واستدار نحو الباب، مشى خطوتين، وقف، دار حول محوره..

- إني صديق..

لم تصدر عنّي أيّة نأمة..

- لن أبقى هنا، مهما حصل.. وأنى ما حللت سأتكلم عن الميزوبوتاميا، وعن الأوهام التي

أرسفونا بها.



وبغطة إتجه نحو المكتبة، وحمل كتاب كريم وقال بنبرة ودودة.

- سيكون هذا زوادتي، إن سمحت لي بأخذه..

ارتسمت على شفتي بسمه ود وهمست.

- لك هذا..

بادلني الابتسام ثم طلب برجاء صادق..

- أريد أن تودعاني..

هزرت رأسي موافقاً، عاد إلى منضدة الكتابة، تناول قلماً، كتب بعض السطور، ثم أنهض عينيه.

- هذا هو عنواني ورقم هاتفي، ربما سنلتقي في المستقبل.

وانحنى على الطفل وشاله بين حناياه، مشى خلفي وأنا أقوده إلى الباب عينه الذي أدخلته منه

قبل سويغات، فتحت درفته ووقفت، رفع الطفل المجهول إلى وجهه وطبع على جبينه قُبلة حارة،

كان الطفل هادئاً وعيناه تبحثان بلجاجة عن كنه اللحظة القادمة غب هذا الصمت والسكون. مد

كفه، مددت كفي، تصافحنا بود حقيقي، همس.

- أطلب منك الصفح.. عن كل الأذى والدمار الذي ألحقناه بكم.

شدّ على يديّ بمودة وحرارة، وأعطى وجهه للفجر الوشيك.

\*

**السيرة الذاتية:**

## هيثم بهنام بردى

**الأسم الكامل:** هيثم بهنان جرجيس بردى

ولد في العراق/ عام 1953، عضو اتحاد الأدباء العراقيين، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو نقابة الفنانين العراقيين، عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية، رئيس تحرير مجلة (إنانا) التي تعنى بشأن المرأة.

**حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:** الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام 1980. ملتقى القصة العراقية في بغداد عام 1995. ندوة الرواية العربية في بغداد عام 2002. الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام 2005. الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د. علي جواد الطاهر) في بغداد 2008. مهرجان الجواهري عام 2010 وعام 2012. مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام 2010. معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام 2014، ألقى فيها محاضرة في "القاعة الزرقاء" عن الأدب السردى العراقي الحديث. مؤتمر الرواية العراقية - دورة الروائي غائب طعمة فرمان، المنعقد في بغداد عام 2016.

**أصدر أكثر من ثلاثين كتاباً موزعاً على:**

**الرواية:**

1. مار بهنام وأخته سارة/ مركز أكد للطباعة والإعلان - أبريل 2007.
2. قديسو حدياب/ مركز أكد للطباعة والإعلان - أبريل 2008.
- صدرت باللغة السريانية عن دار منارة في أبريل عام 2011 ترجمة: كوركيس نباتي.
3. أحفاد أورشنابي/ دار ثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - ابوظبي، بيروت 2015.

**الرواية القصيرة:**

1. الغرفة 213/ مطبعة أسعد - بغداد 1987.
- صدرت طبعتها الثانية عن دار نون - الموصل 2017.
2. الأجساد وظلالها/ دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2017.
3. الطيف/ دار الجواهري للطباعة والنشر والتوزيع - من إصدارات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق 2017.
4. أبرأت/ دار أزمنة للطباعة والنشر والتوزيع - عمان 2018.
5. الأعمال الكاملة - الرواية القصيرة/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2019.

### القصة القصيرة:

1. الوصية/ دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة - بغداد 2002.
2. تليباثي/ دار نعمان للثقافة- بيروت 2008.
- صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام 2010.
- صدرت طبعتها الثالثة عن دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2015.
3. نهر ذو لحية بيضاء/ دار رند للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2011.
4. أرض من عسل/ دار الحوار للنشر والتوزيع- اللاذقية، سوريا 2012.
5. الطوفان/ دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2015.
6. الأعمال الكاملة (القصة القصيرة)/ دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2018

### القصة القصيرة جداً:

1. حب مع وقف التنفيذ/ مطبعة شفيق- بغداد 1989.
2. الليلة الثانية بعد الألف/ منشورات مجلة نون - الموصل 1995.
3. عزلة انكيديو/ مطبعة نينوى - بغداد 2000.
4. التماهي/ دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة - بغداد 2008.
5. القصة القصيرة جداً/ الأعمال القصصية 1989-2008 / دار رند للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2011.
6. سفائن وفنارات/ دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع- عمان 2018.

### أدب الطفل:

1. الحكيمة والصيد/ مسرحية للفتيان - مطبعة بيريفان- أربيل 2007.
2. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان- دار رند للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2010.
3. العشبة/ مسرحية للفتيان - مطبعة الديار- الموصل 2013.
4. قناديل جدي/ مجموعة قصصية للفتيان - دار أمل الجديدة- دمشق 2017
5. سكاكر جدي/ مجموعة قصصية للفتيان - دار أمل الجديدة- دمشق 2018

### نقد:

1. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم- المديرية العامة لتربية نينوى- الموصل 2010.
- صدرت طبعتها الثانية "مزينة ومنقحة" عن دار الشؤون الثقافية عام 2015.

2. القصة القصيرة جداً- الريادة العراقية/ دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع- عمان 2016

#### الإعداد والتقديم:

1. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث/ إعداد وتقديم- إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية- أربيل 2011 .
2. سركون بولص الذي رأى/ إعداد وتقديم ومشاركة- إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية- أربيل 2017.

#### الكتابة المفتوحة:

- الذي رأى الأعماق كلها/ كتاب انثياللات - مطبعة ميديا - أربيل 2007.

#### سلسلة مبدعون عراقيون سريان:

1. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقديم - إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية - أربيل 2009.  
- صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر - دمشق 2012.  
- صدرت ترجمتها إلى اللغة الكوردية من قبل أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام 2012.
2. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية القصيرة جداً/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2012.
3. روائيون عراقيون سريان في مسيرة الرواية العراقية/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2012.
4. كتاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي/ مطبعة شفيق- بغداد 2013، ( إصدارات مجلة "إنانا" ).
5. مبدعون عراقيون سريان/ مؤسسة دار الصادق الثقافية- بابل 2018 - (وهو حصيلة الأجزاء الأربعة في مجلد واحد)

#### كتب صدرت عن أدبه:

##### • في الرواية:

1. دلالات المكان في روايات هيثم بهنام بردى/ محمود ناصر نجم/ مطبعة الدباغ- أربيل

2016.

2. تجربة هيثم بهنام بردى الروائية/ أ. د. سوسن البياتي/ دار غيداء للطباعة والنشر -  
عمّان 2019.

#### • في القصة القصيرة:

1. تجليات الفضاء السردي - قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: أ. د محمد صابر عبيد/ دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع - دمشق 2012.
2. شباط ما زال بعيداً، دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: جوزيف حنا يشوع/ مطبعة الديار - الموصل 2012.
3. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التظاهر، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ محمد إبراهيم الجميلي/ مطبعة الديار - الموصل 2013.
4. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء/ إعداد وتقديم ومشاركة: الدكتور خليل شكري هياس/ دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2014.
5. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2014.
6. فاعلية الذاكرة في تليباثي، بين أسطورة الواقع وسحر الخيال/ إعداد وتقديم ومشاركة أ.د. إيمان محمد العبيدي/ دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع - عمان 2018.

#### • في القصة القصيرة جداً:

1. حبة الخردل/ دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر/ منشورات اتحاد الأدباء السريان - الموصل 2005. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام 2010.
2. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً - قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق 2012.
3. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم: خالص ايشوع بربر/ مطبعة شفيق - بغداد 2014.

#### • في الحوار:

- أسماء في ذاكرة المدينة - هيثم بهنام بردى/ حوار: نمرود قاشا، تقديم: معد الجبوري/  
مطبعة شفيق- بغداد 2013.

### دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً" من كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل بتاريخ 2013/3/3 عن رسالته الموسومة (السردي في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).
- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان على شهادة الماجستير بدرجة "امتياز" من كلية التربية للبنات/ جامعة تكريت، بتاريخ 2014 /2 /17 عن رسالتها الموسومة: (جماليات القصة القصيرة جداً/ هيثم بهنام بردى مثلاً).
- حاز الأستاذ همام حازم عطا على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً عالي" من كلية الآداب/ جامعة تكريت، بتاريخ 2015/1/11 عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).
- حاز الأستاذ محمود ناصر نجم على شهادة الماستر بدرجة "إمتياز - بدرجة 90%" من كلية الآداب والعلوم الإنسانية- دائرة اللغة العربية وآدابها/ جامعة (بلمند اللبنانية)، بتاريخ 2016/1/20 عن رسالته الموسومة (المكان ودلالاته في روايات هيثم بهنام بردى).

### كتب عن تجربته في الكتابة كل من:

- د. عمر الطالب، د. محمد صابر عبيد، د. فاضل عبود التميمي، د.نادية هناوي سعدون، د. ثائر العذاري، د. جميل حمداوي (مغربي)، د. خليل شكري هياس، د. فيصل غازي النعيمي، د. سوسن البياتي، يوسف الحيدري، جاسم عاصي، سليمان البكري، ناجح المعموري، معد الجبوري، عبد الستار البيضاني، د. فاتمة محمد حسين الشوبكي، د. فرح أدور حنا، د. إيمان العبيدي، د. نبهان حسون السعدون، د. سمير الخليل، د. محمد أبو خضير، د. قيس كاظم الجنابي، زهير بردى، إسماعيل إبراهيم عبد، إيمان عبدالحسين، حمدي الحديثي، سعدون البيضاني، محمد يونس محمد، صباح الأنباري، زهير الجبوري، أنور عبد العزيز، علي محمد الحلبي، عباس خلف علي، محمد عطية محمود (مصري)، ازدهار سلمان، د. جاسم خلف الياس، د. فيصل القصيري، د. علي أحمد محمد العبيدي، د. سالم نجم عبدالله، بولص آدم، عباس خلف، علي محمد الحلبي، خالص ايشوع، شاكرا سيفو، جوزيف حنا ايشوع، إسماعيل عيسى، هناء عبدالهادي (مصرية)، جمال نوري، حميد حسن جعفر، حمدي الحديثي، ناظم السعود، حسن السلطان، شاكرا الأنباري، علوان السلطان، أحمد محمد الموسوي، سمير إسماعيل، د. مثنى كاظم صادق،

د. كريم ناجي، د. محمد ابراهيم الجميلي، د. جاسم الخالدي، د. علي صليبي المرسومي، د. محمد يونس صالح، د. موسى الحوري، محمود ناصر نجم، بشار عليوي، نمرود قاشا، وعداالله ايليا، شاکر محمود الجميلي، نزار الديراني، جبو بهنام، لؤي ذنون.... وغيرهم.

#### الجوائز:

- حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام 2006.
- حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام 2006 عن قصته القصيرة "النبض الأبدي".
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال/ دار ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام 2010 عن مسرحيته الموسومة (العشبة).
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عام 2011 عن قصته الموسومة (الرسالة).

#### ورد اسمه:

- في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين - الجزء الثالث - صفحة 281) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام 1998 لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.
- في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين - صفحة 600) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل - مركز دراسات الموصل - عام 2007، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

#### الترجمة:

- ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية والسريانية.